

واعمالهم على مستوى أولئك الأبطال لتقوم بهم مدينتنا على أحسن الدعائم كما قامت مدينة الطليان في هذه الأزمان.

### صبح الأعشى للقشقلندي

الكتب كالأشخاص فيها النافع وفيها الضار وفيها مالا يضر وما لا ينفع والنافع قليل على كل حال. واو قياً لمصر منذ طبع أول كتاب عربي في روما في العقد الثاني من القرن الخامس عشر للميلاد رجال يعرفون من أين تؤكل الكتف في العلم ليطبخوا حتى الآن جميع ما عرف للسلف من الكتب الممتعة ولكن ما طبع في ديار الغرب من نوادر الأسفار العربية متمما لما طبع في مصر كهف العرب والعربية ولكن مصر لم تنتبه لهذا الأمر إلا على عهد محمد عبي فطبع في الطبعة الأميرية بعض النوادر وكثرت المطابع في مصر وفي غير مصر فطبع الجود والجيد ومجموع ما طبع حتى الآن لا يبلغ نصف ما خلفه السلف من تركهم الثمينة وبعثه الجهل والحمول. وآخر ما احيى بالطبع من ذخائر العلم كتاب صبح الأعشى في كتابه النشا طبعته دار الكتب الخديوية بالقاهرة في المطبعة الأميرية وأخرجت للناس منه الجزأين الأول والثاني وكانت منذ بضع سنين طبعت الجزء الأول منه فأعاد طبعه ف المطبعة الأميرية لتتمه بحرف طريف ظريف وهو مقصد جميل يضاف لما لهذه الدار من المقاصد الحسنة في نشر الكتب النادرة على نفقتها خصوصا ما له علاقة بمصر مثل تاريخ مصر لابن إياس والانتصار لابن دقماق في وصف مصر وتاريخ الفيوم لأبي عثمان النهلسي وغير ذلك الكثير.

وكتاب صبح الأعشى للقشقلندي هذا سيكون في بضعة أجزاء وقد وقع الجزآن الأولان منه في نحو ألف صفحة والقشقلندي نسبة لقلقشندة قال الزبيدي: قد تبدل اللام راء وهو <sup>المسهور</sup> بلدة بمصر من أعمال قليوب وفيها ولد الإمام الليث بن سعد

لرضي الله عنه وخرج منها كبار العلماء والتحدثين منهم العشرة من أصحاب الحافظ ابن حجر وهذه القرية قد وردت عليها مرات يتولاها أمراء الحاج قال ابن خلكان وهي على ثلاثة فراسخ من القاهرة وهي بلدة حسنة المظهر كثيرة البساتين.

هذه القرية هي مسقط رأس مؤلفنا كما قال السخاوي في الضوء اللامع وهو احمد بن علي بن احمد بن عبد الله الشهاب ابن الجمال أبي اليمين الفزاري القلقشندي ثم القاهري الشافعي والد النجم ولد سنة ست وخمسين وسبعمائة واشغل بالفقه وغيره وسمع علي ابن الشيخ ومن في وقته وكان احمد الفضلاء ومن برع في الفقه والأدب وكتب في الإنشاء وناب في الحكم وشرح قطعا من جامع المختصرات بل شرع فنظمه وعمل صبح الأعشى في قوانين الإنسان في أربع مجلدات وكان ستضر أكثر ذلك من جامع المختصرات والحاوي وكتابا في الأنساب للعرب.

هذا ما قاله السخاوي وأنت ترى أن هذه الترجمة المختصرة ادني إلى أن تكون ترجمة فيه ذكي في الحماسة لا ترجمة علامة من جملة كتبه هذا الكتاب صبح الأعشى الذي هو دائرة معارف كبرى أكثر ما عرف من العلوم ذاك الزمن مما فيه فائدة للمنى الذي يريد أن ينشئ عن علم وفهم.

إليك طرفا من حال المؤلف إما تأليفه فكما قال عنه مبسوط يشتمل على أصول كتابه الإنشاء وقواعدها متوعيا من المصطلح ما اشتمل عليه التعريف والتشريف موضحا لما افهماه بتبيين الأمثلة مع قرب المأخذ وحسن التأليف أتيا من معالم الكتابة بكل معنى غريب ناقلنا الناظر في هذا المصنف عن رتبة أن يسأل فلا يجاب إلى رتبة أن يسأل فيجاب منها على ما يحتاج إليه الكاتب من الفنون التي يخرج بمعرفتها عن عهدة الكتابة وردها ذاكرة من أحوال الممالك الكتابية عن هذه المملكة ما يعرف به قدر كل مملكة وملكها مبين الجهة قاعدتها معرفا الطريق الموصل إليها برا وبحرا.

ذاكرا مع كل قاعدة مشاهير بلدانها إكمال للتعريف ضابطا لأسمائها بالحروف كي لا يدخلها التبديل والتحرير.

إما أبواب الكتاب لكثرة ترجع كلها إلى مقدمة وعشر مقالات وهي في فضل الكتابة ومدح فضلاء أهلها وذم حمائم وذكر مدلول الكتابة وتفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة وترجيح النثر على الشعر وصفات الكتاب والتعريف بحقيقة دور الإنشاء وأصل وضعه في الإسلام وتفرقة بعد ذلك في الممالك وقوانين ديوان الإنشاء وترتيب أحواله وآداب أهله. الثانية في المسالك والممالك والخلافة ومن وليها من الخلفاء في القديم وما انطوت عليه ممالكهم من الأقطار المصرية ومصافاتها من البلاد الشامية وما يتصل بها من الممالك والبلدان المحيطة بمصر من الجهات الأربع. الثالثة في ذكر الأمور التي تشترك فيها أنواع المكتبات والولايات وغيرها من ذكر الأسماء والألقاب وكتابة الملخصات وبيان الفوائد والخواتم. الرابعة في أمور كلية تتعلق بالمكتبات مثل مصطلح المكتبات الدائرة بين كتاب الإسلام في كل زمن من الصدر الأول إلى زمن المؤلف. الخامسة في الولايات وكيف يكتب لكل منها والبيعات والعهود. السادسة في الوصايا الدينية والمساحات والطلاقات وتحويل السنين والتذاكر. السابعة في المقاطعات. الثامنة في الإيمان. التاسعة في عقود الصلح والمفسوخ. العاشرة في فنون من الكتابة يتداولها الكتاب ويتنافسون في عملها. وفي كل مقالة من هذه المقالات العشر أبواب كلها منسقة أحسن تنسيق مثل موائى الفرنسي لمهدنا مع وفرة مادة الألمان في تأليفهم وانه إذا وقع للمؤلف شيء قليل في كل منات من الصفحات مما لا ينطبق مع فوق العصر الحاضر أو يخالف أصول العلم الحديث فالذنب في ذلك لأعلى المصنف بل على عصره الذي كتب ارق ما عهد فيه ومحسه تمحيص عاقل حكيم.

وهناك أمثوزجات من الكتاب الأول: من كان فردا في زمانه بحيث يضري به المثل في أمثاله: كان لاسكندر في طوفان الأرض وكسرى انوشروان في العدل وحاتم الطائي في الكرم وأبو قراط في الطب وأبو بكر الصديق رضي الله عنه في معرفة الأنساب وعمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوة الهية وعثمان بن عفان رضي الله عنه في التلاوة وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في القضاء وأبو عبيدة بن الجراح في الأمانة وأبي ذر في صدق اللهجة وأبي بن كعب في القرآن وزيد بن ثابت في الفرائض ونافع في القراءة وأبو الحسن المدائني في الأخبار ومالك بن انس في العلم والشافعي في الحديث وأبو الحسن الأشعري في علم الكلام وابن حزم في مذهب الظاهر وسيويه في النحو وأبو الحسن البكري السيرى في الكذب وإياس بن معاوية في الذكاء والتفريس وأبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني في الخاضرة والرازي في الطب وابن القرية في البلاغة والجاحظ في الأدب والبيهن والحريز في المقامات والبديع الهمداني في الحفظ والزمخشري في تعاطي العربية وجرير الشاعر في الهجاء والقاضي الفضل في الترمز والعماد الكتب في الجناس وحنين بن اسحق في ترجمة اليوناني إلى العربي وابن سينا في الفلسفة وابن الهيثم في الرياضي ونجم الدين الكتاني في المنطق والقاضي احمد في الروية والصولي في الشطرنج وجابر بن حيان في علم الكيمياء.

وقال من فصل في الحمام: ثم هو على قسمين احدهما ما ليس له اعتداء في الطيران من المسافة البعيدة والثاني ماله اعتداء ويعرف بالحمام الهدي وهو المراد هنا وقد اعتنى الناس بشأنه في القديم والحديث واهتم بأمره الخلفاء كالمهدي ثالث خلفاء بني العباس والواثق والناصر وتنافس فيه رؤساء الناس بالعراق لا سيما البصرة فقد ذكر صاحب الروض المعطار أنهم تنافسوا في اقتنائه ولهجوا بذكره وبالغوا في أثنائه حتى بلغ ثمن الفارة منه سبعمائة دينار ويقال انه بلغ ثمن طائر منها جاء من خليج

القسطنطينية ألف دينار وكانت تباع بيضة الطائر المشهور بالفراة بعشرين دينار  
وانه كان عندهم دفاتر بأنساب الحمام كأنساب العرب وانه كان ليمتتع الرجل  
الجليل ولا الفقيه ولا العدل من اتخاذ الحمام والمنافسة فيه والأخبار عنها والوصف  
لأثرها والنعته لمشهورها حتى وجه أهل البصرة إلى بكار بن كتيبة البكراني قاضي  
مصر وكان في فضله وعقله ودينه وورعه ما لم يكن عليه قاض بحمامات له ثقات  
وكتبوا إليه يسألونه أن يتولى إرسالها بنفسه وكان الحمام عندهم متجرا من المتاجر لا  
يرون بذلك باسا.

ويطول بنا الكلام إذا أردنا إن نقبس فصولا من الكتاب لبيان مزيتة بين الأسفار  
الرائقة وقد دل تجويد المؤلف لتأليفه على مبلغه من العلم ووفرة ما كان لديه من  
كتب الأمهات فأوائل القرن التاسع للهجرة في زمن نسميه دور الفطور ولكن مصر  
لم تخل في عامة أدوارها بؤسها كأيام نعيمها من إجلاء حكماء تنبتهم تربة النيل وقد  
لا يشتهرون إلا بعد مماقم لاتساع القطر والحدس المأثور عن بعض العلماء أحدهم  
للآخر ولكن العالم الحقيقي تظهر حسناته ولو بعد قرون وكم من مؤلف مثل  
القلقشندي رزق الحظوة في جميع ما كتب كما وقع القريري وياقوت والجاحظ  
والغزالي والماوردي وابن كتيبة والراغب والمجيدون في توليفهم من المتأخرين قلائل  
على كل حال بقي أن نسدي أطيب الثناء على عمدة دار الكتب الخديوية لجهدها  
العلم الحين بعد الآخر بإحياء مثل هذه المصنفات التي قد يفني الكتاب منها عنه.  
خزانة كتب ويفيد في بث العلم في الدانية والقاصية ما لا تقوم به الخطب  
والمحاضرات والمقالات المقصورة على زمان معين وفتة معينة من الأرض ونخص  
بالشكر مديرتها ووكيلها وقد أحسن الطابعون بجعل فواصل بين الفصول والأبواب  
وإتمام السطر حيث تنتهي الجملة أو القطعة ووضع أدوات الفصل الجديدة المعروفة

في اللغات الإفرنجية وإن كان أداة العجب لم تجعل بعض الأحيان في أماكنها أما أغلاط الطبع فنادر في هذين الجزأين من الكبريت الأحمر، ورجلونا أن تزيد العناية في الأجزاء التالية ويشفع آخر الكتاب بفهرس مستوفى مثل فهرس تاريخ مصر لابن إياس طبع دار الخديوية أو أكثر توسعاً منه حتى نياهي بأن مصر فاقت أوروبا بمطوعاتها العربية ويكون لنا هذا القليل المتع من أمهات الكتب العملية الذي جود الطابعون طبعه ووضع خير عزاء لما يصدر كل أسبوع من مطابع مصر التجارية ونحجل منه أمام أنفسنا دع غيرنا من علماء الأمم الراقية حتى لقد قلت ثقة علماء الشرقيات بمطوعاتنا اللهم إلا النادر القذ ولم يعولوا في مصنفاتهم ونقولهم إلا على ما طبع منها في بلاد الغرب خاصة.

وذكر المقر الشهابي بن فضل الله في التعريفان الحمام أول ما نشأ يعني في الديار المصرية والبلاد الشامية من الموصل وإن أول من اعتنى به من الملوك ونقله من الموصل الشهيد نور الدين زنكي صاحب الشام رحمه الله تعالى في سنة ٥٦٥ وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر وبالغوا حتى افرد وله ديوانا وجرائد بأنساب الحمام وقد اعتنى بعض المصنفين بأمره حتى صنف فيه أبو الحسن بن ملاعب القواس البغدادي كتابا للناصر لدين الله العباسي ذكر فيه أسماء أعضاء الطائر ورياشه والوشوم التي توشم في كل عضو وألوان الطيور نوما يتحس من صفاها وكيفية أفرخها وبعض المسافات التي أرسلت منها وذكر شيء من نواذرها وما يجري مجرى ذلك. وذكر في التعريف أن القاضي محي الدين بن عبد الظاهر صنف فيه كتابا سماه تائم الحمام وقال في مسافة الطيران: ذكر ابن سعيد في كتابه جنى المحل وجنى النحل أن العزيز بمصر ذكر لوزيره يعقوب بن كلس انه ما رأى القراصة البعلبكة وأنه يجب أنيراها وكان بلمشق أن يجمع ما بها من الحمام المصري ويعلق في قدر

كثير من القراصية فطلع بها إلى العزيز من يومه وذكر أيضا في كتابه المغرب في أخبار المغرب أن الوزير اليازوري المغربي وزير المستنصر الفاطمي وجه الحمام من مدينة تونس من افريقية من بلاد المغرب إلى مصر فجاء إلى مصر وذكر أبو الحسن القواس في كتابه في الحمام أن حماما طار من عبادان إلى الكوفة وإن حماما طار من الترفاوذ إلى الأبله ونحو ذلك .

وذكر في جملة ما ذكره في تجويد الإنشاء خلو الفكر عن المشوش وصفاء الزمان وقال في هذا: قال أبو تمام الطائي في وصيه لأبي عبادة البحري مرشدا له للوقت المناسب لذلك:

تخير الأوقات وأنت قليل الهموم صفر من الغموم واعلم أن العادة في الأوقات إذا قصد الإنسان تأليف شيء وأحفظه أن يختار وقت البحر فإن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة وقطها من النوم وخف عنها ثقل الغذاء ووصفا الدماغ من أكثر الأبخرة والأدخنة وسكنت الغماغم ورقت النسائم وتغنت الحمامم. وخالف ابن أبي الصابع في اختيار وقت السحر وجنح إلى اختيار وسط الليل اخذ من قول أبي تمام في قصيدته البائية:

خذها ابنة الفكر المهذب في الدجى ... والليل أسود رقعة الجلباب

مفسرا للدجى بوسط الليل محتجا لذلك بأنه حينئذ تكون النفس قد أخذت حظها من الراحة ونالت قطها من النوم وخف عنها ثقل الغذاء ليكون الذهن حينئذ صحيحا والصدر منشرحا والبدن نشيطا والقلب ساكنا بخلاف وقت السحر فإنه وإن كان فيه يرق السيم وينهضهم الغذاء إلا إنه يكون قد انتبه فيه أكثر الحيوانات الناطق وغيره ويرتفع معظم الأصوات ويجري الكثير من الحركات وينقشع بعض الظلماء بطلانع أوائل الضوء وبما انهم عن بعض الناس الغذاء فتحركت الشهوة

لاختلاف ما انضم منه وخرج من فضلاته فكان ذلك داعيا إلى شغل الخاطر وباعثا على انصراف الهمم إلى تدبير الحدث الحاضر فيقسم الفكر ويتذبذب القلب ويتفرق جميع الهمم بخلاف وسط الليل فانه خال من جميع ذلك.

وقال في صفاء المكان: وذلك بان يكون المكان الذي هو فيه خاليا من الأصوات عاريا من المخوفات والمهولات والطرارق وان يكون مع ذلك مكانا واثقا معجا رقيق الحواشي فسيح الأرجاء بسيط الرحاب غير غم ولا كدر فان انضم إلى ذلك ما فيه بسط للخاطر من ماء وخضرة وأشجار وإزهار وطيب رائحة كان ابط للفكر وانجح للخاطر. وقد ذهب بعضهم إلى انه ينبغي خلو المكان من النقوش الغربية والمرائي المعجة فإنها وان كانت مما ينشط الخاطر فان فيها شغلا للناظر فيتبعه القلب فيشتاد.

ويطول بنا الكلام إذا أردنا نقبس فصولا من الكتاب لبيان مزيتة بين الأسفار الراقية وقد ذل تجويد المؤلف لتأليفه على مبلغه من العلم ووفرة ما كان لديه من كتب الأمهات في أوائل القرن التاسع للهجرة في زمن نسميه دور الفتر ولكن مصر لم تخل في عامة أدوارها أيام بؤسها كأيام نعيمها من إجلاء حكماء تنبهم تربة النيل وقد لا يشتهرون إلا بعد مائتم لاتساع القطر أو للحد الماثور عن بعض العلماء احدهم للأخر ولكن العالم الحقيقي تظهر حسناته ولو بعد قرون وكم من مؤلف صف المائة والمائتين من المجلدات فلم يكتب لها البقاء لأنها غير نافعة وفي غيرها عنها كفاية وكم من مؤلف مثل القلقشندى رزق الحظوة في جميع ما كتب كما وقع للمفريزي وياقوت والجاحظ والغزالي والماوردي وابن كنية والراغب والمجيدون في توليفهم من المتأخرين قلائل على كل حل بقي إن نسدي أطيب الشاء على عمدة دار الكتب الخديوية لعهدهما العلم الحين بعد الآخر بإحياء مثل هذه المصنفات التي

قد يعني الكتاب منها عن خزانة الكتب ويفيد في بث العلم في الدانية والقاصية ما لم تقوم به الخطب والمحاضرات والمقالات المقصورة على زمان معين وفئة معينة وبلد معينة من الأرض نخص بالشكر مديريها ووكيلها وقد أحسن الطابعون بجعل فواصل بين الفصول والأبواب وإنهاء السطر حيث تنتهي الجملة والقطعة ووضع أدوات الفصل الجديدة المعروفة في اللغات الإفرنجية وإن كانت أداة العجب لم تجعل بعض الأحيان في أماكنها إما أغلاط الطبع فأندر في هذين الجزأين من الكبريت الأحمر ورجاءنا إن تزيد العناية في الأجزاء التالية ويشفع آخر الكتاب بفهرس مستوفي مثل فهرس تاريخ مصر لابن إياس طبع دار الكتب الخديوية أو أكثر توسعا منه حتى نباهي بان مصر فاقت أوروبا بمطبوعاتها العربية يكونوا لنا هذا قليل الممتع من أمهات الكتب العلمية الذي جود الطابعون طبعه ووضع خیر عزاء لما يصدر كل أسبوع من مطابع مصر التجارية ونجعل منه إمام أنفسنا دع غيرنا من علماء الأمم الراقية حتى لقد قلت ثقة العلماء المشرقين بمطبوعاتنا اللهم إلا النادر القذ ولم يعولوا في مصنفاتهم ونقولهم إلا على ما طبع منها في بلاد الغرب خاصة.

سجع العماد

ذكر لنا احد الفضلاء بأننا حملنا على العماد الكاتب في الجزء عند كلامنا على سيرة صلاح الدين والاستطراد إلى تجرعه بنثره دون التوسع في حسناته في بلاغته وفصاحته وما كان كلامنا فيه إلا من قبيل الاستطراد وإلا فان سجع العماد كما سار مسير المثل في البلاد ولو كان البحث خاصا فيه وقصرنا في توفيته حقه لتم هذا الحكم من كل وجوهه. وما نحن أولاء نشفع ذاك النقد بنقل شذرات من سجعه البديع وأماننا من كنه الفتح القسي وزبدة النصر وهما من الكتب التي باكر المشرقون إلى تمثيلها بالطبع منذ زمن للاستفادة من مضامينهما العماد الكاتب

الاصهباني أبو عبد الله محمد بن صفى الدين المعروف بابن أخي العزيز من طلبة المدرسة النظامية في بغداد ولما تخرج ومهر تعلق بالوزير ابن هبيرة ببغداد غزلاه النظر بالبصرة ثم بواسطة فلما توفي تشتت شمل إتباعه ومنهم العماد الذي أقم مدة. كما روى ابن خالكان في عيش منكذ وجفن مسهد ثم انتقل إلى دمشق سنة ٥٦٢ هـ فاتصل بصاحبها نور الدين محمود بن زنكي وبصلاح الدين يوسف بن

أيوب وأهل لكتابة الإنشاء قال العماد: فبقيت متحيرا في الدخول فيما ليس من شأني ولا وظيفتي ولا تقدمت لي به دراية ولقد كانت مواد هذه الصناعة (أي الإنشاء) عتيبة عنده لكنه لم يكن قد مارسها فجن عنها في الابتداء فلما باشرها هانت عليه وأجاد فيها واتى فيها بالغرائب وكان ينشئ الرسائل

بالعجمة أيضا وبعد وفاة نور الدين اتصل بصلاح الدين فنظمه في سلك جماعته واستكبه واعتمد عليه فصار من جملة الصدور المعدودين والأمائل المشهورين يضاهي الوزراء ويجري في مضمارهم وكان القاضي الفاضل هو الواسطة في ذلك بينه وبين صلاح الدين وقال أنا لا يمكنى الملازمة الدائمة في كل سفرة وغدا يكاتبك ملوك الأعاجم ولا تسخني في الملك عن عقد اللطفات وحل التراجم والعماد يفى بذلك ولك اختاره وقد عرف في الدولة النورية مقداراه واخذ للعماد خط السلطان بما قرره له من شغل. وكان القاضي الفاضل في أكثر أوقاته ينقطع عن خدمة السلطان ويتوفر على مصالح الديار المصرية والعماد ملازم للباب بشام وغيره وهو صاحب السر المكتوم.

قال صاحب وفيات الأعيان وصف العماد والتصانيف الفائقة من ذلك كتاب جريدة القصر وجريدة العصر جعله ذيلا على زينة دمية الدهر تأليف الخطيري الذي جعل كتابه ذيلا على دمية القصر للباخرزي والباخرزي جعل كتابه ذيلا على يتيمة

الدمر للتعالم وهذا جعل كتابه ذيلًا على كتاب البارخ لهرون بن علي المنجم وكتاب العماد في عشر مجلدات وصنف كتاب البرق الشامي في سبع مجلدات وكتاب الفتح القسي في مجلدين وكتاب السيل على الذيل جعله ذيلًا على الذيل لابن السمعاني وصنف كتاب نصره الفترة وعصرة القطرة في أخبار الدولة السلجوقية وله ديوان رسائل وديوان شعر في أربع مجلدات ونفسه في قصائده طويل وله ديوان صغير جميعه دونيت وكان بينه وبين القاضي الفاضل مكاتبات ومحاضرات لطاف. توفي سنة ٥٩٧هـ بمشق. وسجع العماد الكاتب وان كتب إليه الوزير ضياء الدين بن الأثير صاحب المثل الثائر: وكيف لا يكون ذلك وقلما هو يراع الذي نفتت الفصاحة في روعة وكمت الشجاعة بين ضلوعه فإذا قال أراك كيف تنسق الفرائد في الأجياد وإن قال ذلك فهو كلام الأخ لأخيه والسجع كان من مألوفات تلك الأيام وابن الأثير كان مجع أيضا فن كلام العماد لا يخلو من تحلف مهما تمثنا قال القلشندي في صبح الأعشى فيما يكون حسن السجع وقبحه: منها إن يكون السجع بريء امن التكلف خاليا من التعسف محمولا على ما يأتي به الطبع وتبديه الغريزة ويكون اللفظ فيه تابعا للمعنى بان يقتصر من اللفظ بما يحتاج إليه في المعنى دون الإتيان بزيادة أو نقص بسبب السجع دون المعنى خرج السجع عن حيز الظم ومنها إن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة لا غنة ولا باردة موقنة المعنى حسنة التركيب غير قاصرة على صورة السجع الذي هو تواطؤ الفقر فيكون كمن نقش أثوابا من الكرفس أو نظم عقدا من الحرز الملون: قال في المثل الثائر وهذا مقام نزل عنه الأقدام ولا يستطيع إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد قال ومن اجل ذلك كان أربابه قليلا ولولا ذلك كان كل أديب سجاعا إذا ما منهم من احد إلا وقد يتيسر عليه تأليف ألفاظ مسجوعة في الجملة. وما قد إن أوان نقل فصول

من كلام العماد بيانا لمزلته في النثر وتجليه في حلية البيان قال في مقدمة الفتح القسي: هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدباء الذين يتطلعون اللي الغرر التحلية وبين المسخرين الذين يستشرفون إلى السير التحلية. يأخذ الفريقان منه على قدر الفرائح والعقول. . . ويكون حظ المسخر أن يسمع والأديب إن يقول. فان فيه من الألفاظ ما صار معدنا من معادن الجواهر التي نولدها (انظر إلى هذه الدعوى التي لا تفوقها إلا دعوى الوزير ابن الأثير صاحب المثل السائر) ومن غرائب الوقائع ما صار به لسانا من السنة العجائب التي نوردها وإنما بدأت بالتاريخ به لاستقبال سنة ثلث وثمانين وخمسائة لان الترايخ معادها إما إن تكون متحقة من بدء نشأة البشر الأولى راما متحقة بمعقب من الدول الأخرى فلا امة من الأمم ذوات الملل. وذوات الدول. إلا ولهم تاريخ يرجعون إليه. ويعولون عليه. ينقله خلفها عن سلفها وحاضرها عن غابرها تقيد به شوارد الأيام وتنصب به معالم الأعلام ولولا ذلك لانقطعت الوصل وجهلت الدول ومات في أيام ذكر الأول. ولم يعلم الناس أنهم لعلاقة الثرى. وأنهم نطف في ظلمات الأصلاب طويلة الثرى. وان أعمارهم مبتداه من العهد الذي تقادم لأدم وقد اخذ ربك من بني ادم من ظهورهم ذريتهم أراداه من ظهورهم. فليعلم المرء قبل انقضاء عمره وقبل نزول قبره ما استعده أهل الطي من حقيقة الشر. وتقبل في واحدة من الأطوار شهادة عشر. فقد قطع عمرا بعد عمر. وسار دهرًا بعد دهر. وثرى والشر في ألف قبر. وإنما كان من الظهور في ليل إلى إن وصل من العيون إلى فجر ولولا التاريخ لصاعت مساعي أهل السياسات الفاضلة. ولم تكن المدائح بينهم وبين المدام هي الفاضلة. ولقد الاعتبار بمسالة العواقب وعقوبتها. وجهل ما وراء صعوبة الأيام من سهولتها وما وراء سهولتها من صعوباتها فأرخ بنو ادم بيومه. وكان أول من اشترى الموت نفسه وقاع الترع مقام سومه. ثم

أرخ الأولون بالطوفان الذي بلل الأرض وأغرقها ثم بالعام الذي بلبل الألسن وفرقتها وأرخت الفرس أربعة فإليه ترجع الفرس تواريخ لأربع طبقات من ملوكها أولهم كلشاه ومعنى هذا الاسم ملك الطين فإليه ترجع الفرس بأنسائها وعليه ينسق عقد حسابها وهي الآن تؤرخ بيزجرد آخر ملوكها وهو الذي بزاه الإسلام تاج إيوانه وأطفئ نور الله بيت نيرانه وأرخ اليونان من فيلبس أبي لاسكندر والى قلوبطرة آخرهم وهؤلاء المسمون بالحفء وهم الصابنون وأرخ اليهود بأبيائهم وخلفائهم وبعمارة البيت المقدس وبخرايه على ما اقتضاه نقل أوائلهم وآبائهم وكانت العرب قبل ظهور الإسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة فكانت حمير تؤرخ بالتابعة ممن يلقب يذو ويسمى بقيل وكانت غسان تؤرخ بعام السد حين أرسل الله عرم السيل وأرخت العرب اليمانية بظهور الحشة على اليمن ثم بغلبة الفرس عليه وأرخت معه بغلبة جرمهم للعمالق وإخراجهم عن الحرم ثم أرخو بعام الفساد وهو عام وقع فيه بين قبائل العرب تنازع في الديار فنقلوا منها وافترقوا عنها ثم أرخوا بحرب بكر وتغلب ابني وائل وهي حرب البسوس وثم أرخوا بحرب عيس وذبيان ابني بغيض وهي حرب داس والغبراء وكانت قبل المبعث بستين سنة ثم أرخوا بعام الختان قال النابغة الذبياني:

فمن بك سائلا عني فإني ... من الفتيان في عام الختان

وأرخوا بعدة من مشاهير أيامهم وأعوامهم بعام المخائق وعام النائب ويوم ذي قار وبحرب الفجار وهي أربع حروب ذكرها المؤرخون وأسندها الراوون وأدنى ما أرخوا به قبل الإسلام بحلف الفضول منصرف قريش من الفجار الرابع وبحلف المطيين وهو قبل حلف الفضول ثم بعام القيل وهو الجار ذو القربي لتاريخ الإسلام

وخرجت إمام الجمعة فطويت الصحف وجفت الأقلام وظهر الله على الأديان الدين القيم ونسخ تاريخ الهجرة كل تاريخ متقدم.

وقال في مفتح فصل في ذكر ما جرت عليه حال الفرنجة في خروجهم من القلمس وشرع الإفرنج في بيع الأمتعة واستخراج ذخائرهم المودعة وباعوا بالمجان في سوق الهوان وتقاعد الناس بهم فابتاعوا بأرخص الإثماني وباعوا بأقل من دينار كل ما يساوي أكثر من عشرة. وجدوا في ضم الذهبيات والفضيات من الأواني والقناديل والحريريات والمذهبات من الستور والمناديل ونقضوا من الكنائس الكمائن واستخرجوا من الخزائن والدفائن وجمع البطرك الكبير كل ما كان على القبر من صفائح التبر ومصوغات العجد ومصنوعات اللجين وجميع ما كان في قمامة من الجنين والسيجين فقلت للسلطان هذه أموال الكنائس والأديار فلا تتركها في أيدي هؤلاء الفجار فقال إذا تأولنا عليهم نسبونا إلى القدر وهم جاهلون بسر هذا الأمر فحن نجرهم على ظاهر الأمان ولا تتركهم يرمون أهل الإيمان بنكث الإيمان بل يتحدثون بما أفضناه من الإحسان فتركوا ما ثقل وجملوا ما عز وخف ونقضوا من تراب تراثهم وقمامة قماتهم الكف وانتقل معظمهم إلى صور وكفوا بالديجور الديجور وبقي منهم زهاء خمسة عشر ألفا امتنعوا عن مشروع الحق فاقتصوا بمشروط الرق فإما الرجال وكانوا سبعة آلاف فأقم ألفوا ذلا لم يكونوا آه بآلاف فاقسمتهم أيدي سبا وتفرق الغافلون بجمعهم في الزهاد والربا وأحصيت النساء والصبيان ثمانية آلاف نسمة عادت بيننا مقتسمة وأصبحت بيكاتها وجوه الذلولة ميتسمة.

وأنت ترى انه لو رفعت بعض الأسجاع من هذا الفصل البادي التكلف عليه لأصبحت عبارة العماد من السهل المتنع ولكنه تشبث بأذيال هذه الصناعة واثر

التصنيع الصعب المنقادة على الطبع السلس. وقال من فصل آخر وسار السلطان  
ومعه عماد الدين زنكي وسيفه بصقله يضحك وبدم الكفر يكي ومظفر الدين  
كوكبوري وهو الذي حين يوارى صارمة في لجمع العدى لزند الظفر يوري وصحبه  
من فرسان العرب كل فارس معرب ومن شجعان الأكراد كل فاتك مخرب ومن  
فناك الأتراك كل قصور قاصر ومن صيد الصناديد كل كسروي كاسر وكل كمي  
كميش واكديش على اكديش وقارح على قارح وخضم على سابح وجرى جار  
جارح وهممة وبطل وجبل على جبل وفحل على فحل وذمر نكل وورد على ورد  
ومرد على جرد وحلس على حلس وباشر بالموت معبس واهيس المس واحى أحس  
ووعشمشم همام وأيهم مقدم وباسل ذي باس وعاسل عاس ورنبال على رنبال  
ومشمل على شمال وبحر على بحر وصقر على صقر وركبوا سلاهم وجنبا جنائهم  
وجروا على الساحل سيولا وجروا بالذوابل ذيوالا وطارابلس طرابلس بجوا في  
الخوف ودام الجوى في رعب أهلها بدم الجوف وما سار إلا من خف في فضته  
ونفض بجفته وأحسن حصن الأكراد بالا كدار وصفت على صافيتا بوارق البوار  
وقطع عرق عرفا وعقرت وتعرت العريمة وتعرت ومزعت تلك الأعمال ومزقت  
وأرهقت وأزهقت ونفرت أنفارها وبقرت أبقارها ومكت بالدوائر ديارها وسيقت  
مواشها وحثيت بالنيران أوساطها وحواشيها.

وفي كتاب الفتح القسي فصول اشد إيغالا من هذا التكلف الذي اقتبسنا نموذجاً منه  
للتعريف بأسلوب هذا الكاتب وله أيضا في زبدة النصره ونجبة العصر الذي اختصره  
الفتح البندري ونشه الأستاذ هو تسما الهولندي المشرق الشهر لأول مرة في  
الغرب قال في بداية حال السلجوقية وهم أتراك كانت السلجوقية ذوي وعدد وأيد  
ويد لا يدينون لأحد ولا يدينون من بلد وميكائيل بن سلجق زعيمهم المجل

وعظيمهم المفضل وقد سكنوا من أعمال بخارا موضعاً يقال له نور بخارا وما زالوا في انصر شيعة وأنصر عيشة وهم في الرعي يكتنون الكلاً وفي الربيع يملئون الملاً لا يذعر داعر ولا يردعهم رادع والسلاطين يرفعونهم للملمات ولا يرفعونهم ويدعونهم للمهمات ولا يدعونهم حتى عبر عب السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين إلى بخارا المساعدة قدر خان فرأى مكيال مكياثيل بحصا الحصافة معيراً وصاع مصاعه بباسل البسالة موفراً فرغب في استغرابه وانجذب إلى اجذابه وأراد إن يعبر إلى خراسان به وبأهله ويكنف أكنافها الذي الحفظ والحفيظة بنبله ونبله وامتنع ميكياثيل عليه ومال عنه ولم يمل إليه فغاض السلطان تمنعه فقبضه واعتقله وعبر به وبأصحابه إلى خراسان ونقله وقال له ارسلان الحاجب أي أرى في أعين هؤلاء عين الهول وأنهم لمعرفون بالجرأة والقوة والحوول والرأي عندي إن تقطع إمام كل من تعبره منهم ليؤمن ضره ولا يخاف شره فما قبل خطابه في هذا الخطب وقال له انك لقاسي القلب فلما أقاموا في خراسان تقربوا إلى عميدها أبي سهل احمد بن الحسن الحمدوني وأهدوا إليه ثلثه أفراس مختلية وسبعة أجمال بخطية وثلاثمائة رأس غنم تركية وهداه إقبالهم إلى قبول الهدية وكانوا سألوه إن يجرهم في المروج ويسد بمواشيهم محارم تلك الفروج فعين لهم مروج دندلقان فقاربا وما قاربا وتحاكمها من عداهم وجانبها وتوفي محمود بن سبكتكين وهو كاره لأمرهم مثنق من وخصم جرهم مستشف ستر القضاء في قضية شرهم وجد أبو سهل الصعب فيهم سهلاً. واتخذهم لارتفاقه بهم صحبا وأهلاً ونفذ مسعود بن محمود بن سبكتكين عسكرياً من غزة إلى خراسان فواقعهم وقتل منهم عدة واسر منهم جماعة حملهم إلى غزة منهم ييغوا إلى خراسان فاستعطفوه فلم يعطف واستعطفوه فلم يعف ولما غلق رهنهم وتوثق شربوا كلس اليأس وأبدلوا إيتاس الناس بإيخاش الحاشية ومشى شحنة طلس لاستيقاق

ما لهم من ماشية واستلان خشونتهم واستهل صعوبتهم ولما ظن انه أب بالغنم  
والغنمة وباء بعر العزيمة ركبوا إليه صهوات الخنق وصرفوا نحوه أعنة الحية والعنق  
حتى لقوه فتركوه لقي وتبعوا المنهزمين ودخلوا إلى طلس فملكوها وجاسوا خلال  
ديارها وملكوها وتشاوروا في ما بينهم وقالوا هذا بحر خضاه وفتح ابتكرتاه وطاس  
مدينتنا التي تزوينا وحصنا الذي يحمينا فلا نفرج عنها ولا نخرج منها وشرع أبو  
سهل الحمدوني في إدراك ما فرط واستمسك ما اخبط وكادوا يجيرونه بالجميل  
ويحملون في الجواب ويميلون بما لأته إلى صوب الصواب فتسرع شحنة نيسابور  
وتعسر وجند وعسكر وشن على سرحهم غارة على غارة ونهض لمنفعة فمضت  
بمضرة فركبت السلجوقية إليه والى جماعته إرسالاً ونشوا معهم وشبوا قتالا  
وهزمهم وكسروهم وقتلهم وأسروهم وامتدوا إلى نيسابور فدخلوها ووجدوا في  
خلوها فرصة فاهتلوها وذلك في شهر رمضان سنة ٤٢٩ وعزموا على مد يد وهب  
البلد لمعهم طغرليك محمد بن ميكائيل بن سلجق وهو أميرهم وكبيرهم وقال لهم  
نحن في شهر حرام لأنفك عصمته ولا يحصل من النهب ارب وإنما يسوته السمعة  
ويشيع الشنعة فنفرت جماعته من مقاله وسخفوا رأيه في تبين حرام الفعل وحلاله.

إلى إن قل واستولوا على خراسان وتجاوزوها إلى العراق وطارا على ملك الديلي  
ورموه بالصليم وغلوا الأملاك وبلغوا الأفلاك واقتسموا البلاد وطرفوا أطرافها  
والبلاد قال وهذه السنة (٤٣٧) هي أول سنة ورد فيها الأتراك (السلجوقيين) إلى  
العراق وانتشروا منها في الأفاق ثم قال وأجفل الملوك من خوف إقدامهم وتحووا من  
طريق ضرامهم فما جازوا إلى بلدة إلا ملكوا مالکها وملئوا مسالكها وأرعوا  
ساكنيها واسكنوها الرعب وغلوا ولائها ولولها القلب وازوروا إلى الزوراء  
وأشاعوا مد اليد بالغارة الشعواء وقال في ظهور الإسماعيلية فتابت نوائب وظهرت

العجائب وفارق الجمهور بينا جماعة نشئوا على طباعنا وكالوا بصاعنا وكانوا معنا في المكتب واخذوا حظا وافرا من الفقه والأدب وكان منهم رجل من أهل الري وساح في العالم وكانت صناعته الكتابة فخفي أمره حتى ظهر وقام فأقام من الفتنة كل قيامه واستولى في مدة فريية على حصون وقلاع منيعة وبدأ من القتل والفتك بأمر شنيعة وخفيت عن الناس أحوالهم ودامت حتى استب على استبا بسبب لن لم يكن للدولة أصحاب أخبار وكان الرسم في أيام الديلم ومن قبلهم الملوك أنهم لم يخلوا جانبا من صاحب خبر وبريد فلم تخف عنهم أخبار الأقباصي والدايني وحال الطائع والعاصي حتى ولي في الدولة السلجوقية ألب ارسلان محمد بن داود ففاوضه نظام الملك في هذا الأمر فأجابته انه لا حاجة بنا إلى صاحب خبر فان الدنيا لا تخلو كل بلد فيها من أصدقاء لنا وأعداء فإذا نقل إلينا صاحب الخبر وكان له غرض اخرج الصديق في صورة العدو والعدو في صورة الصديق فاسقط السلطان هذا الرسم لأجل ما وقع لهم من الهم فلم يشعر إلا بظهور القوم وقد استحكمت قواعدهم واستوثقت معادقهم وأخافوا السبل وأجالوا على الأكابر الأجل وكان الواحد منهم يهجم على كثير وهو يعلم انه يقتل فيقتله غيلة ولم يجد احد الملوك في حفظ نفسه منهم حيلة فصار الناس فيهم فريقين لمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة فمن عاداهم خاف من تركهم ومن سالمهم نسب إلى شركهم في شركهم وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجهتين فأول ما بدؤوا بقتل نظام الملك ثم اتسع الحرق وتفاقم الفتق ولما أكنوا تجمعوا من كل صنف تطلق إلى جميع أصناف الناس التهم ودب البري السقم وتوفرت على التوفي الهمم.

منه هي انموذجات من سجع العماد ولعل في ذلك فائدة لمن يجب هذه الطريقة ولكنها صعبة لا تنتج في هذا العصر الذي أصبح فيه المعاني قبل المباني.

احمد فتحي باشا زغلول

رزئت مصر بل البلاد العربية برجل نافع في فضتها العلمية والاجتماعية والفضائية ونعني به المرحوم احمد فتحي باشا زغلول من رجال القضاء في مصر رفعه عمله إلى المناصب العالية وكتب له عمله درجة سامية بين العلماء بما ألف وعرب توفاه الله عن نحو خمسين عاما في القاهرة وكان من الرجال العاملين الذين يصرفون فضل أوقافهم في التعريب والتأليف وجميع ما عربه وألفه من الكتب الاجتماعية والحقوقية يدل بعد غوره وانه لا ينشر للناس إلا المفيد فأول كتبه التي نشرها كتاب أصول الشرائع لبنتام الانكليزي عربيه عن بالفرنسية في مجلدين لطيفين ثم عرب كتاب خواطر وسوا نح في الإسلام للكونت هنري دي كاستري ثم كتاب سر تقدم الانكليز السكسونيين لادمون ديمولان وهذا اشتهر كثيرا واثروا في نفوس كل من طالعه وترجم أيضا كتاب روح الاجتماع للفيلسوف كوستاف لوبون صاحب كتاب حضارة العرب وكتاب سر تطور الأمم لذاك الفيلسوف أيضا وألف من الكتب كتاب المحاماة وكتاب شرح القانون المدني.

احتفل رجال العلم والقضاء والحكومة في مصر في أوائل شهر حزيران من السنة الفائتة في مقر الجامعة المصرية بالعالم فتحي باشا على اثر نشره كتاب شرح القانون المدني فتليت خطب كثيرة في إعماله وقدمت له نسخة مجلدة تجليدا مذهبا من كل كتاب ألفه ورسالة شكر وقع عليها المحتفلون. وفي التاسع من أيار هذه السنة احتفل طائفة من رجال العاصمة المصرية يوم الأربعاء من وفاته بتأبينه وتعداد بيض أباد به علي العلم والقضاء وذلك في الأوبرا الخديوية بحضور جمهور كبير من العلماء